القراءة الأسلوبية في التصوف الإسلامي لإبن الفارض

على ضوء الآليات اللغوية

حسين چراغي وش(الكاتب المسؤول)
أستاذ مساعد بجامعة لورستان في إيران
cheraghivash.h@gmail.com
سعيد سواري
ماجستير من قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة العلامة الطباطبائي ـ إيران
saeedsavari63@yahoo.com

Stylistic study of Ibn Fariz Islamic mysticism according to language mechanism

Hossein cheraghivash
Assistant Professor of Lorestan University

Saayd savary
MA from the Department of Arabic Language and Literature, Alama Tabatabai University, Iran

الملخص:

إنتهج المقال المنهج الوصفي التحليلي معتمداً على الدراسة الأسلوبية إذ تطرّق إلى تبيين تأثّر تصوف إبن الفارض بأساليبه اللغوية دلالةً، وإلى تتبع علاقة أسلوبه اللغوي بالتصوف الإسلامي تنظيراً. فاشتهر الشاعر بكثرة الوجوه البديعية والمحسنات اللفظية، وخلافاً عن الرؤية اللفظية تناولت المقالة بصيصا من الأساليب اللغوية ربطاً بالتصوف الإسلامي لغةً ودلالةً، انطلاقاً من أسلوب التناوب وآلية التقديم والتأخير، وتقنيتي الاستفهام والنداء لتأصيل الاتساق اللغوي والدلالات، وذلك لتلاحم الدراسات المتداخلة بين اللغة والأدب وثقافة التصوف الإسلامي.

توصل البحث إلى أنّ الشاعر حَبَكَ بين الأساليب اللغوية ودلالاته نيلاً ودلالةً بالتصوف الإسلامي بحيث استقي شيئا من التناوب والمنادي من ثقافة القرآن اللغوية أسلوبا. فتصوف الشاعر الإسلامي كان متأثرا بالأساليب التي مرتبطةٌ بالنهج اللغوي القرآني شيئا. فتأسيساً على هذا يمكن القول بإمكان تزاوج الدراسات المتداخلة بين اللغة والأدب والتصوف الإسلامي واستكناه الدلالات والأساليب اللغوية بناءً على أساليب القرآن.

الكلمات المفتاحية: الأسلوب - الآليات اللغوية -التصوف الإسلامي - إبن الفارض.

Abstract:

This essay is up to study semantic influence of Islamic mysticism on Ibn Fariz language style according to stylistics and Descriptive-analytic method. Ibn Fariz is famed for being verbal arrangementer and punctilious poet while despite of this view and to find semantic and linguistics connections between the styles and Islamic mysticism and proving language coherence with semantics, some styles such as Alternation, Irony and Delaying and techniques like Interjection and Interrogativation are applied to make connections between intermediate studies of language, literature and Islamic Mysticism culture (Sufism).

This research reached to this point that the poet had linked his semantic and linguistics style with the Islamic Mysticism and it's meaning expression and also part of his Frequency and interjection is achieved from the Quran linguistic style. Hence Ibn Fariz Islamic mysticism is influenced by other linguistics styles and the latter are connected with the Quran linguistics methods. Thus this could be said that intermediate studies between language, literature and Islamic mysticism are able to be linked.

Keywords: style, linguistics mechanism, Islamic mysticism, Ibn Fariz.

١ـ المقدمة:

طرأت على الأدب العربي المضامين العقائدية ومن ضمنها الصوفية التي وليدة العُزلات الدينية والإمعانات الباطنية فيما يرمز الشاعر بها بالرموز العرفانية وذلك أثناء إشعاره الباطني الكامن في طريقة ما بغيةَ العثور على إدراك التصوف سواء التصوف الإسلامي أو غير الإسلامي حيث التعاليم الصوفية تخصّ معرفة الوجود والباطن وما شابهها لا يدركها إلّا الممعن في الباطن والضمير.

ولهذا يجتني الشاعر الانطباعات الصوفية من نبع كامن في اللاوعي أو من مصادر لغوية إذ تتسنّي المعرفة والأسرار الخفية له سواء في النفس أو لفظاً في الشعر فيما ((يستخدم اللغة استخداما يقوم على الانتقاء والاختيار ويركب جملة ويؤلف نصّه بالطريقة التي يراها مناسبة.)) (ربابعة، ٢٠٠٣: ٩) وتبعاً لهذا عاش ابن الفارض في عصر التوترات والتصعيدات السياسية والاجتماعية لعصر المماليك ونال الحظوة المشربة للتصوف الإسلامي وذلك من العناصر والأساليب اللغوية في الشعر منها الأساليب النحوية والبلاغية وغيرهما محاولاً دمجها في الآراء والتصوف الإسلامي دلالةً وتنظيراً.

فمن هذا المنطلق اللغوي يميط أُسلوبُ ابن الفارض اللغوي أستارَ التصوف الإسلامي وهو الارتباط الدلالي والاتصال اللغوي باللغة تعبيراً عن التصوف الإسلامي وذلك لتناول التعاليم الصوفية الإسلامية تمسكاً بالمعارف الغريبة نظير معرفة الوجود والباطن وصولاً إلى الأسرار والرموز.

فتوغلُ ابن الفارض في قسم من هذا التصوف الإسلامي نابعٌ من الآليات اللغوية ((مما سعت هذه الأساليب اللغوية إلى التنظير للأدب بإعتمادها اللغة المستعملة في النص الأدبي.)) (الراضي، ٢٠١٤: ١٦) فسعي الشاعر إلى تنظير سُبل الوجد والاشتياق لنيل معرفة الباطن والأسرار وذلك من الشعر وبالأساليب اللغوية. هذا يُعني أنّه نظّر إلى التصوف الإسلامي بواسطة الأساليب اللغوية ومعاني التصوف معتمداً على اللغة والأدب معاً.

هذا وترمي ضرورة البحث إلى أنّ الشاعر أجهد النفس والنفيس تعبيراً عن التصوف الإسلامي بحيث يسّرته الآليات النحوية والبلاغية ليكشف الحجاب عن الكامن مستوعباً

معرفة الأسرار والمستورات حصولاً على الرؤية الصوفية الإسلامية دمجاً في اللغة والأدب.

١-١ خلفية البحث

أمّا الخلفية فعثر البحث على البحوث التالية:

١- مقال بعنوان (سلطان العاشقين (ابن الفارض) وخصائصه الشعرية) لمحمد على أبو الحسني أستاذ مساعد قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة شهرضا وسردار أصلاني أستاذ مساعد قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة اصفهان نُشرَ في مجلة بحوث في اللغة العربية وآدابها بجامعة اصفهان، فصلية محكمة، العدد ٤، ربيع وصيف ١٣٩٠ شـ.

٢- بسط الباحثان مجال الزخارف اللغوية أكثر مما بسطا الطرق اللغوية والبنيات النحوية. بعبارة أخري إنّ الباحثين سلطا الضوء على الجمال البديعي أكثر مما بسطا لغة الشاعر النحوية.

٣- مقال بعنوان (العشق و السكر في شعر ابن الفارض و الحافظ الشيرازي) لسعيد زهره‌وند أستاذ مساعد قسم اللغة الفارسية وآدابها لجامعة لرستان نشر في مجلة فصلنامه نقد و ادبيات تطبيقي لجامعة رازي كرمانشاه، فصلية محكمة، العدد ٣، خريف ١٣٩٠ شـ.(و هذا البحث دراسة مقارنة بين إبن الفارض و حافظ الشيرازي في مفاهيمهم العرفانية)

٤- مقال بعنوان (التناقض في الأناشيد العرفانية نموذجا ديوان الكبير لإبن العربي و ديوان أبن الفارض) لروح الله صيادي نجاد أستاذ مساعد قسم اللغة العربية وآدابها لجامعة كاشان ومحسن سيفي أستاذ مساعد قسم اللغة العربية وآدابها لجامعة كاشان ومنصورة طالبيان خريجة مآجستير قسم اللغة العربية وآدابها لجامعة كاشان نشر في مجلة فصلنامه نقد وادبيات تطبيقي لجامعة رازي كرمانشاه، فصلية محكمة، العدد ٦، صيف ١٣٩١ شـ.

٥- مقال بعنوان (إبن الفارض و المعرفة العشقية) لمحمد كودرزي أستاذ مساعد قسم الأديان والعرفان لجامعة آزاد إسلامي لبروجرد نشر مجلة العرفان الإسلامي، فصلية تخصصية، العدد ٣٢، صيف ١٣٩١ شـ.

٦- مقال بعنوان (دراسة الخمرة العرفانية عند الحافظ و إبن الفارض) لمحمد خاقاني أستاذ قسم اللغة العربية وآدابها لجامعة اصفهان وداود نجاتي خريج مآجستير اللغة العربية وآدابها بجامعة اصفهان ورضا جعفري تركلويه خريج مآجستير اللغة العربية وآدابها لجامعة اصفهان نشر في مجلة فصلنامه نقد وادبيات تطبيقي لجامعة رازي كرمانشاه، فصلية محكمة، العدد ٩، ربيع ١٣٩٢ شـ.

٧- نقد لحنا الفاخوري في كتاب الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم المجلد الـ١ بنشر عام ١٣٩٣ شـ، معللاً لغة الشاعر منحصرةً على البديع والمحسنات اللغوية دون العناية بجانب ارتباط لغة الشاعر بأساليبها والمعني.

٨- مقال بعنوان (دراسة مقارنة لخمريات إبن الفارض و الحافظ) لحسين صدقي أستاذ لقسم اللغة الفارسية وآدابها لجامعة شهيد مدني تبريز ونورالدين بيدا طالب دكتورا قسم اللغة الفارسية وآدابها لجامعة شهيد مدني تبريز نشر في مجلة مطالعات تطبيقي، العدد ٤٢، صيف ١٣٩٦ شـ.

فالبحوث السابقة ما تناولت لغة الشاعر والفارق لمقالنا قياسا بالخلفية هو ربط الآليات اللغوية بتعبير الشاعر الذي كان يتسمّ بالتصوف الإسلامي وذلك بواسطة التعليل اللغوي المتصل بالمعاني الصوفية الإسلامية دون المحسنات الفظية ولهذا كانت لغة الشاعر مرتبطةٌ بالمعني.

١-٣- الأهداف

يهدف البحث إلى تحقيق:

١- ارتباط اللغة بالدلالة.

٢- تقديم بحث متداخل بين ثقافة التصوف الإسلامي والأدب تأسيساً على اللغة بأساليبها ووظائفها ليصبَّ في صالح الدراسات المتداخلة.

١-٤- المنهج والأسئلة والفرضيات

انتهج البحث انتهاج المنهج الوصفي التحليلي وذلك على ضوء الدراسة الأسلوبية

اللغوية.

أمّا السؤالان اللذان دفعا البحث باختيارهما فهما:

١- ما هو تأثير الأساليب اللغوية لابن الفارض على المعني؟

٢- ما هي علاقة أُسلوب ابن الفارض اللغوي بالتصوف الإسلامي وكيف؟

أمّا الفرضيتان بناءً على السؤالين فهما:

١- كان تأثير الأساليب يصبُّ في التعبير عن التصوف الإسلامي اتساقا لغويا ودلالياً وتنظيرياً.

٢- كانت ثمة علاقة بين انتقاء الشاعر اللغوي والأسلوب القرآني تربط التصوف الإسلامي باللغة فالشاعر أسس شيئا من أساليبه على الثقافة اللغوية القرآنية.

٢-البحث

٢-١- نبذة عن سيرة ابن الفارض

((هو عمر بن على بن المرشد بن على الأديب العارف ولد في مصر وتوفي بها فهو سيد شعراء عصره وشعره صَنعٌ إلى الغاية.)) (الصفدي، ٢٠٠٠، ج٢٣: ٥) ((فنشأ متعففا متزهدا عكف على الفقه متعمقا في أسراره ثم مال إلى التصوف سالكاً طريقه ومتدرجا في حالاته، واعتزل الناس لهذه الغاية عدّة سنوات مما جعل الخلوة بغية التقشف يردع بها أميال الجسد والشهوات.)) (الفاخوري، ١٩٨٦، ج١: ٨٥٩)

سلك الشاعر بترويض وتهذيب النفس والباطن التصوفَ كمدرج للوجود وذلك لمشاهدة الله باطناً والفناء فيه فهذه الطريقة الصوفية أسسها على الأُسلوب النحوي والبلاغي في لسان الشعر وصولا إلى الانطباعات الصوفية التي تتواكب على مناداته مع الفناء في الله.

٢-٢- التصوف وتعاليمه وغايته

لا تُحصي تحديدات ومفاهيم التصوف بما أنّ المتصوفين يسيرون مع الصوفية على طرق مختلفة انصهارا بها لأنّ الصوفية طريق لغاية ما وذلك بحسب وجهة نظر المتصوفين فإن تناولنا كتب الصوفية فنعثر على كمية هائلة من التعاريف والمفاهيم الصوفية فالمهم في هذا

المجال هو بسط التعريف البسيط الذي يستساغه العقل الإنساني تلويحاً بالماهية الواقعية للتصوف حيث لا يتجازف العقل في جوهرات وأفكار التصوف فيما تبالغ في تبيين تعاليمه لأنّ الدراسة لا تتعلق ببسط آراء التصوف بل هي تسعي إلى دراسة الأساليب اللغوية لابن الفارض وكيفية اندماجها في التصوف الإسلامي.

ولهذا جاء ((التصوف لغة مصوغ من الصوف للدلالة على لبس الصوف واصطلاحا ما كان يطلق على المتجرد للحياة الصوفية بحيث يسمي المتجرد في الإسلام صوفيا.)) (ماسينيون وعبدالرزاق، ١٩٨٤: ٢٥)

((نقلَ العطارُ عن جنيد بأنّ الصوفي هو الذي سَلَمَ قلبه كقلب إبراهيم من حب الدنيا وصار بمنزلة الحامل لأوامر الله، وتسليمه تسليم اسماعيل، وحزنه حزن داود، وفقره فقر عيسى، وصبره صبر أيوب، وشوقه شوق موسى وقت المناجاة، وإخلاصه إخلاص محمد ﷺ.)) (ظهير، ١٩٨٦: ٣٩)

فيما يتعلق بتعاليم ومميزات التصوف جاءت خصائصُ وتعاليمُ وهي فيما تلي تلخيصاً:

((١- الترقي الأخلاقي وتصفية النفس بالمجاهدات البدنية، ورياضات نفسية، وزهد في ماديات الحياة.

٢- الفناء في الحقيقة المطلقة بحيث يصل بها الصوفي من رياضاته إلى حالة نفسية معينة.

٣- العرفان الذوقي المباشر الذي يختص بالكشف.

٤- الطمأنينة أو السعادة.

٥- الرمزية في التعبير التي تخص عبارات معينة ظاهرية في الألفاظ وتعمقات وتحاليل نفسية للصوفي.)) (التفتازاني، ١٩٧٩: ٦-٨)

الأفكار والتعاليم الصوفية على الوجه العموم هي عبارة عن الإخلاص للتقوى وإثبات الحب لله تعالى والعمل على وجه الإخلاص والفناء في الرب والاشتياق لله عزّ وجلّ فهذه التعاريف تَصبّ في غاية معينة وهي تطهير الباطن والتخلص من الدنيا ماديا والحب الحقيقي لله، فرغم أنّ المصطلحات لتعريف الصوفية بأفكارها مختلفةٌ لكنّ غاية التصوف الإسلامي موجهةٌ إلى الحب الإلهي والتطهير الباطني للإنسان مما تُدعي بها الله.

بناءً على هذا التعريف أنّ ابن الفارض يصوغ على أساليب النحو والبلاغة صياغةَ الحب الإلهي والفناء في المعبود والاشتياق لله ربطاً باللغة وأساليبها.

٢-٣- الأسلوبية اللغوية بين تصوف إبن الفارض الإسلامي.

((الأسلوب للمنشئ للنص الأدبي هو طريق الكتابة، والأسلوبية هي دراسة الأنماط التعبيرية في حقل لغوي أو دراسة خصائص الأسلوب عند كاتب في كل إنتاجه الأدبي أو بعضه أو أحد مؤلفاته.)) (سليمان، ٢٠٠٤ : ٣٨-٣٩) ولتوطيد علاقة خطاب ابن الفارض بين التصوف الإسلامي واللغة يجب أن تعتمد هذه العلاقة التعبيرية اللغوية على عدة آلياتٍ هي أساليب النحو والمعاني والبيان تعبيراً عن التصوف الإسلامي.

أُسلوب ابن الفارض في طريقه التعبيري تصوفا إسلاميا يعتمد على آلية نحوية وبلاغية تنبع من كفائته اللغوية وذلك لربطها بالمعاني انطلاقاً من ملكته اللغوية فيما تؤدي به لفكرة التصوف الإسلامي.

ولهذا يمكن أن تعالج أسلوبية ابن الفارض اللغوية انطلاقاً من أساليب نحوية وبلاغية متنوعة لكنّه في هذه الدراسة يسلط الضوء على الآليات اللغوية التالية:

١- التناوب بين الفعل

٢- تناول التصوف على ضوء أساليب الإنشاء

الف- الاستفهام

ب- النداء

ج- آلية التقديم والتأخير

٢-٣-١- التناوب بين الفعل

لا شك أنّ آليات اللغة للإفصاح عن نوية معينة كثيرةٌ في العربية وبإمكان المنشئ للعمل أن يتداولها بين سياق نصه فيما تنتهي به إلى المعني المطلوب. وفي هذا الصدد التعبيري عن اللغة ((إنّ التناوب هو إحلال كلمة قد تكون اسما أو فعلا أو حرفا محل غيرها مما يناظرها فتؤدي معناها وتنوب عنها في السياق وينجز عن الكلمة النائبة من معان بحيث إنّ التناوب

يثبت معنيين في آنٍ واحد.)) (سليمان، ٢٠٠٤: ٩١) بغيةَ استهداف دلالة المنشئ وذلك في نصه.

فهذه الطريقة اللغوية تجعل من القارئ أن يستنتج العمل الأدبي من معان متنوعة تفسيراً وفهماً وذلك على أساس تناوب الكلمة اعتباراً من ترادف الكلمة. وإلى جانب طريقة التناوب للفعل لم يهمل ابن الفارض التناوب اللغوي في شعره الصوفي إذ سايرَه من أجل الحصول على التصوف الإسلامي ليؤحي للمخاطب معنيين مترادفين بحسب توظيف الكلمة الواحدة قائلا:

خاطب الخطب الدعوي فما ... بالرقي ترقي إلى وصل رقي

رح معافٍ و اغتنم نصحي وان ... شئت أن تهوى فللبلوى تهي

(النمري، ٢٠٠٣، ج١: ١٠٨-١٠٩)

الشاهد في البيت الأول هو إحلال ((فعل (خاطب) محل (طالب) وإحلال فعل أمر (رح) محل (اذهب) و(سر).)) (المصدر نفسه: ١٠٨-١٠٩) فوظف الشاعر (الخطب) و(الروح) ليجدي معنيين لكلتيهما ولتُربط ثمةُ علاقةٍ معنويةٍ للفعلين لأنّ (الخطب) هو ((سبب الأمر العظيم.)) (الفراهيدي، ٢٠٠٣، ج١: ٤١٨) و(الرَوح) بفتح الراء هو ((نسيم الريح.)) (بن زكريا، ١٩٧٩، ج٢: ٤٥٤)

هذا التناوب يشابه الأسلوب القرآني لغةً وذلك بتوظيف مفردة (خاطب) مثيلة لـ(إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) (الفرقان/٦٣) دالا على أنّ الشاعر متأثر في هذا الأسلوب بالنهج اللغوي القرآني.

فعلي ضوء طريقة ترادف الفعلين لـ(خاطب ورح) يشرب الشاعرُ الفكرةَ الصوفية إشراب معني طلب الوصول إلى الحبيب وإلى طلب الأمر العظيم انطلاقاً من تناوب (خاطب) ليطلق معني الذهاب بلوغاً إلى المحبة والبلوي اعتباراً من (روح) بينما تُضمّن العلاقة الترادفية المعجمية المتسقة معني الحب الإلهي والفناء فيه لأنّ ((الترابط المعجمي يصور مدي الموافقة والانسجام ثم يساعد على التماسك المعجمي بين مفردات النص.)) (عامر حسن، لا.ت: ١١)

هذا من جانب الانسجام اللغوي لابن الفارض مفردةً وذلك على سبيل التناوب للفعلين ليحوّر الشاعر معني الفعلين ثم ينتقل من معني آخر نظير الشاهد التالي إذ يقول في اضمحلال جوارحه وإخضاعها لله:

قد برى أعظم شوق أعظمي فنى جسمي حاشى أصغريُّ

(النمري، ٢٠٠٣، ج١: ١١٨)

لابدّ لابن الفارض أن يأخذ مجري المعني المجازي بالفعل لينال الغاية لأنّ المعني الحقيقي أقل شأنا من حيث المعني واللغة وهذا المنطلق يتأسس على فعل (بري) وهو بمعني ((تسوية الشئ نحتا.)) (بن زكريا، ١٩٧٩، ج١: ٢٣٣) دالاً على انعدام جسمه واضمحلال جوارحه إلّا لسانه وقلبه لأنّ اللسان هو ما يقرّ به بوحدانية الوجود والقلب هو ما يؤمن به لله.

خطاب التصوف الإسلامي الذي وجهّه ابن الفارض إلى مداومة لسانه وقلبه تَمّ على التعبير اللغوي وعلي فعل (بري) لأنّ التعبير اللغوي بواسطة كلمة (بري) ليس نظير التعبير العادي كونه ((يكون لكل كلمة مع صاحبها مقامٌ.)) (عبدالمطلب، ١٩٩٤: ٢٦٢) فالمعني الحقيقي للشاعر يكمن في كلمة (بري) حيث المقام المعنوي لكلمة (بري) هنا هو المعني المجازي قصداً إلى السيطرة النفسية الباطنية على الجسم لأنّ (بري) هو نحت الجسم لكنّ المعني الحقيقي هو نحت شوق ابن الفارض تمهيداً إلى الشوق الإلهي الذي يقرّ به بلسانه حيث ذكره في المصرع الثاني بأنّ جميع جسمه يفني إلّا أصغراه.

أدركَ ابنُ الفارض المقام الكامن لفعل (بري) ولوّح بنيابته وذلك لمعني إذلال وانعدام جوارحه مجازا. وإلى جانب نيابة الفعل بالمجاز استقي مفهومَ الاشتياق النفسي والروحي والجسدي معاً وبعبارة أخري إنّ ابن الفارض يقصد من الإذلال والانعدام الجسمي تسلطه عليها في كل حين بل لا فنائها الحقيقي الجسمي ولكي يثبت ما يدعي بتركيزه في الجوراح الجسدية يشير إلى مقدرة العين عند إمعانها المعارف الحقيقية نظير الرؤية الباطنية والتأمل النفسي معبّراً:

شام من سام بطرف ساهر طيفك الصبح بألحاظ عمي

(النمري، ٢٠٠٣، ج١: ١٢٢)

التعبير فعل يعبّر عن الفكر وذلك بواسطة اللغة وإنّ ((مفهوم القيمة الأسلوبية يفترض وجود عدد من الطرق للتعبير عن الفكرة نفسها.)) (بييرجيو، ١٩٩٤: ٥١-٥٢) والأُسلوب في هذا البيت هو التناوب بكلمة (شام) هي بمعني ((النظر والقصد.)) (الفراهيدي، ٢٠٠٣، ج٢: ٣٧٢) وبكلمة (سام) هي بمعني ((الطلب.)) (بن زكريا،١٩٧٩، ج٣: ١١٨)

فالغاية منهما ربط الفكرة بطريقة الاستعارة على أن يتم التعبير الصوفي عن استعارة الكلمتين إلى المحبوبة وذلك بطريقة الترادف يؤسس معني (نظر وطلب).

لكنّ القصد والطلب والنظر إلى المحبوب الحقيقي لابن الفارض يتمُّ على قوة المعني المجازي للفعلين وإنّ المتناول الذي يقصده الشاعر هو ليس مُدرَكاً في الواقع الباطني بل يتخيل الوصول إليه وذلك بالمشاهدة والنظر لأنّ الاختلاج النفسي عند الوصول إلى المحبوب لدي ابن الفارض أمر واقعي أنجع نفسه لكنّ الوصول الحقيقي وهو النظر الباطني إلى الله أمرٌ خيالي وهذا ما يربط العلاقة المعنوية الثنائية لفعل (شام وسام) بأسلوب التناوب.

٢-٣-٢- تعبير التصوف على ضوء أساليب الإنشاء

الف- الاستفهام

تعبير التصوف لرؤية الشاعر هو عبارة عن إفصاح عن معني معين وذلك بالطريقة اللغوية مما تتجلي معرفة التعاليم الصوفية. ومن هذا الجانب يمتّ ابن الفارض التصوفَ بأساليب الإنشاء حيث ((الإنشاء هو الإيجاد ما لا يحتمل الصدق والكذب لذاته وما لا يحصل مضمونه ولا يتحقق إلّا إذا تلفظ به.)) (الهاشمي، ١٩٩٩: ٦٩)

يحقق تعبيره الصوفي بلغة الإيجاد وبطريقة الاستفهام لينهل المناهل المعنوية نظير تطهير النفس واليقين القلبي والاشتياق النفسي ومعرفة الباطن وذلك عن طريق أسلوب الاستفهام والنداء لأنّ الأفكار الصوفية التي يعتمد عليها ابنُ الفارض لها صلةٌ بأسلوب الاستفهام.

يدلنا على هذا أنّ ((التركيب النحوي يمثل نظاما فنيا متكاملا والنحو بإمكانه الواسع هو الذي يقدِّم للمبدع احتمالات الأوضاع الكلامية التي ترتبط بعضها ببعض في وحدة من المعاني والأفكار.)) (عبد المطلب، ١٩٩٤: ٥١-٥٢) وأنّ للنحو قيمةً فنيةً فيما يوجد بين الارتباط باللغة والوصول إلى الأفكار وذلك لأداء المعني المطلوب ليساعد النحو بأساليبه

وآلياته على إفصاح الدلالات بدقة سديدة فينتقل ابن الفارض إلى التعجب والإنكار وذلك بارتباط أسلوب الاستفهام بأفكار التصوف قائلا:

هـــل سمعتـــم أو رأيتـــم أســـدا صـــاده لحـــظُ مهـــاةٍ أو ظبـــي

(النمري، ٢٠٠٣، ١: ٥٥)

أيُ شـــي مُبـــرد حـــرّا شـــوى لـــلشوى حـــشو حـــشاي أيُ شـــي

(النمري، ٢٠٠٣، ١: ٥٧)

يستخدم في البيت (هل وأي) الاستفهاميتين وذلك لغاية التعجب والإنكار ولقصد معني النفي وهذا الخروج إلى تعجب وإنكار برودة الحرارة تمّ على ربط الاستفهام حيث هو ((طلب العلم بشئ لم يكن معلوما من قبل.)) (الهاشمي، ١٩٩٩: ٧٨) قاصداً يقين وطمأنينة قلبه تصويرا بالشعر.

الطريقة هنا هي استعمال (هل) الاستفهامية وإنّ اليقين لإدراك الضمير يحصله على طريقة الاستفهام الإنكاري الذي اتصلها بنفي معني البرودة ليحصل على ثبوت الحرارة القلبية.

ومن منطلق اليقين القلبي يتناول تشبيهه بالشجاعة إثباتاً في القضاء على المزالق الدنيوية بطرقها وأدواتها المادية تكريساً إلى فناء النفس. فالمهاة والظبي والاصطياد كلهنّ عبارةٌ عن المزالق الدنيوية ذلك إشارةٌ بشهوات الدنيا. فلهذا إنّ ابن الفارض بطريقة الإنكار ثم ربطها بالمعاني الصوفية يبين القضاء على الشهوات والمزالق نيلاً بطريقة الثبوت اليقين القلبي.

بهذه الأسلوبية اللغوية في الاستفهام يحاول أن يقضي على شهوات الدنيا وذلك بطريقة الثبوت تنظيرا إلى التصوف الإسلامي لنوية يقينية باطنية إعتباراً من الإنكار وبهدف عدم تناوله الهفوات الدنيوية ثم الحصول على الطمأنينة القلبية ونيل اليقين الباطني في تصوفه. فعلي أساس هذا التعبير اللغوي يقوم إبن الفارض ببناء تنظيريته الصوفية وينتقل لمعنى آخر قائلا:

أولـــم يـــنه الـــنهى عـــن عـــذلـــه زاويـــا وجـــه قـــبـــول الـنصـــح زي

(النمري،٢٠٠٣، ١: ٦٢)

أُسلوب الاستفهام الاستنكاري يدغم في النفي لقصد الثبوت لأنّ نفي النفي ثبوت وعلي هذا السبيل يقوم الشاعر بالانطباع مع الثبوت وبهدف النهي ذلك بطريقة الاستفهام الاستنكاري والنفي معاً. فالثبوت بعدم النهي في هذا الشاهد يكون تقريراً إلى الشاعر إشارةً بأنّ النهي لم ينجز النصيحةَ لأنّ قلب الشاعر صافٍ مخلصٌ لا يمكنه أن يتغير في طريق نيل معرفة الحق والوجود.

يريد بطريقة الاستفهام الإنكاري أن يرفض تقلب قلبه وباطنه وذلك لقصد بلوغ معرفة الحق بينما هذا الإدعاءُ أُثبِتَ بطريقة التقرير ارتباطاً بالاستفهام الإنكاري.

ويستمر بفهم طرق وأفكار التصوف وذلك بطريقة الاستفهام يكثرُ من الاستفهام بهمزة الاستفهام قائلاً:

أبــرق بــدا مــن جــانب الــغور لامــع	أم ارتفعــت عــن وجــه ســلمى البراقــع
أنــارُ الغضــى ضــاءت وسلمى بــذي الغضــى	أم ابـــتسمت عمّـــا حـــكته المـــدامع
أنـــشر خـــزامي فـــاح أم عـــرف حـــاجر	بـــأُم الـــقرى أم عـــطر عـــزة ضـــائع

(النمري،٢٠٠٣، ج٢: ١٩٣-١٩٥)

الهمزة في الأبيات استفهام وذلك تعبير عن تصور وتصديق حيث ((التصور هو إدراك المفرد، والتصديق هو إدراك وقوع نسبة تامة بين شيئين أو عدم وقعها.)) (الهاشمي، ١٩٩٩: ٧٨-٧٩) استعمل الشاعر (أم المتصلة) بعد همزة الاستفهام إذ يتبين أنّ الهمزة هنا مع (أم المتصلة) جاءت للتصور لأنّ الجملة هنا بعد همزة الاستفهام اسمية تريد التعيين. بعبارة أخري إنّه يقصد تعيين البرق والنار والنشر لينخرط على الفهم الصوفي تنظيراً إلى التصوف وفهماً للمعني الصوفي بحيث يدرك ويحس هذه المعاني باطنا وضميرا.

بأسلوب التصور بـ(نار الغضي) قصد ((عالم الإمكان في باطنه، وبواسطة تصور البرق وفائحة نشر الخزامي يريد إدراك تجلي الوجود الحق.)) (النمري، ٢٠٠٣، ج٢: ١٩٣-١٩٥) وذلك لإشعاره الباطني الكامن.

على هذا الأُسلوب اللغوي بالتصور يستوعب الشاعر معني (النار والبرق والفائحة) ويسعي بهذه المعاني إلى الوصول الحقيقي وذلك لتجلي الوجود الحقيقي في عالمه الباطني

حسا وعقلا حيث ينتهي به إلى الحب الإلهي.

فتجلي الوجود في الباطن هنا حصل للشاعر على طريقة تصوره بهمزة الاستفهام ثم إدراك الاستفهام بالتعيين ذلك بالمحسوسات الباطنية والإدراكات العقلية ليتسنّي له ربط الأسلوب اللغوي بمعاني التصوف وذلك بطريق الاستفهام والتصور معاً بصفتهما منهلين ولهذا يربط حقيقة حاله الصوفي والحقيقة الباطنية بهذه الطرق اللغوية.

حقيقة حاله الصوفية في هذا الشاهد هي مشاهدة لمعان البرق وتشعشع الإضاءة وانتشار الرائحة والحقيقة الباطنية وهي الانطباع مع هذه الأمور بحيث أدركته عالم الكون والوجود.

وإلى جانب هذا التحليل أشرنا إلى تعاريف التعاليم الصوفية وهذا المعني يتناسب والخيار الثاني والثالث للتحديدات إذ يدلان على الفناء في الحقيقة المطلقة والعرفان الذوقي المباشر.

ب- النداء

صيغة النداء هي من الأساليب اللغوية التي تضمّ الطلب ((وهي الإقبال بحرف نائب مناب أدعو لفظاً أو تقديراً وتقصد الإغراء والحث.)) (التفتازاني، ٢٠١٢: ٢١٣-٢١٤) بينما تقصد أهدافا تؤدي بابن الفارض إلى أن يسدي بمواكبة النداء تعبيراً عن مضمونه الصوفي حثاً على المقبل عليه قائلا:

أي صـــبا أي صـــبا هـــجت لـــنا ســـحرا مـــن أيـــن ذيـــاك الـــشذى

(النمري، ٢٠٠٣، ١: ١٣٨)

مفردة (أي) الأولى حرف نداء ((وهي للقريب.)) (الأسترآبادي، ٢٠١٣، ٤: ٣٤٧) فكأنّ الشاعر يقول :((يا أيتها الريح الطيبة التي تهبين في وقت الصبح فمن أين جئتِ بهذه الرائحة العطرة العذبة))لكنّه عدل عن (الياء) التي هي للبعيد بـ(أي) التي هي للإقبال بالقريب ليقترب حثا على المقبَل عليه-و المقبل عليه هو الريح- ليكون استعمال حرف النداء للقريب أشهي نفساً وأنجع ضميرا ويقترب من رائحة السحر المهبوبة وذلك بأسلوب النداء بحرف النداء القريب.

وإلى جانب هذا التقارب بحرف نداء القريب من المعني وذلك بالإقبال بالرائحة المثيرة

في الصبح يتصفح إبن الفارض جوانب الوجود في أنّ رائحة الصبح تحث وتُغري الإثارة النفسية باطناً و وصولاً إلى الحق والوجود الحقيقي.

فعلي هذا الأساس باستعمال النداء ينتقل الشاعر إلى نداء المطلوب وذلك بياء التي هي للبعيد منشداً:

يـا سـائرا بـالقلب غـدرا كـيف لـم تـتبعـه مـا غـادرتّه مـن سـائري

(النمري ٢٠٠٣، ٢: ٢٢)

الانتقال من القريب إلى البعيد يتم من أجل قصد إقبال المطلوب الحقيقي والمطلوب الحقيقي في الشاهد وهو الله إذ أدركه الشاعر بالفؤاد كأنّه باستعماله النداء الذي للبعيد أحسّ أنّ المحبوب الحقيقي أعرض عنه لا يريد الإقبال عليه.

استخدم الشاعر حرف (ياء) الذي يحتاج إلى المدّ في الصوت حيث ((قد يستعملون حرف (ياء) النداء الذي للبعيد إذا أرادوا أن يمدوا أصواتهم للشئ المتراخي عنهم، أو للإنسان المعرِض عنهم الذي يرون أنّه لا يقبل عليهم.)) (السامرائي، ٢٠١١، ٤: ٢٧٥) وبناءً على استخدام أسلوب النداء مدّ الشاعر صوتَه إلى الله ليتفضل عليه اللهُ مودةً ورحمةً ليشعر بالإشعار الباطني وبوجود الرحمن قلباً وباطناً معاً ثم يلمس بأحاسيسه تأثيرات إقبال الله عليه.

فابن الفارض بتوظيفه أُسلوب (النداء) يجعل حلقة الوصل بين إدراك المحبوب الحقيقي والإفاضات التي تفيضه من إقبال الله عليه أكثر اتصالاً وذلك بياء النداء الذي للبعيد.

وفي هذه الطريقة اللغوية يستمر ببناء الارتباط بينه وبين الله تعالى باطنا، وبينه وبين التعاليم الصوفية انطباعاً معها وصولاً إلى السكون والاستقرار الباطني أثناء هذا الارتباط قائلا:

يـا سـاكن القلـب لا تنظـر إلى سـكني و أربـح فـؤادك و احـذر فتنـة الـدعج

يـا صـاحبي وانـا الـبر الـرؤوف وقـد بـذلتُ نـصحي بـذاك الـحي لا تعـج

(النمري، ٢٠٠٣، ج٢: ٩٨-٩٩)

الاستعمال اللغوي هو نفسه لأنّه جاء إثباتا وتأييدا لما سبق عليه نيلاً بالمودة والرحمة الربانية لأنّ قلبه لا يضطرب مع هذه المودة.

فهذا الاستعمال للنداء تأكيدٌ على الحصول الذي وقع بين ابن الفارض وبين الإفاضات الإلهية متناولاً السكون والاستقرار القلبي والباطني بحيث تؤدّي به إلى الانفعالات والتأثيرات النفسية لتطهّر ضميره وتجعله يشتاق إلى الفناء في الوجود لأنّ ابن الفارض نال الطمأنينة القلبية بالباطن وذلك بطريق مدّ ندائه إلى المحبوب الحقيقي ولهذا ربط رؤيته بالصوفية التي تدل على الفناء والكشف الباطني وظهور الوجود وذلك عن طريق (ياء) النداء بالبعيد الذي لا يري بل يدرك.

أمّا هذا الشاهد (يا ساكن القلب لا تنظر إلى سكني) فهو يماثل الأسلوب القرآني من حيث إتيانه بالنهي المستمر (لا مع فعل المضارع) وذلك شبيه بآية (يبنؤمَّ لا تأخذ بلحيتي) (طه/٩٤)

فأسلوبه بالمنادي في هذا الشاهد يشبه شيئًا من التقنية اللغوية القرآنية.

فهذا المستوي الفني اللغوي بأسلوب النداء الذي للبعيد هو تعبير عن الفكرة المرادة وهي استقرار القلب والباطن بحيث يؤسسها التوظيفُ اللغوي إذ يجعل ابنَ الفارض أن ينال بتوظيف النداء مضمونَه الباطني القلبي منفعلاً بطريقته الصوفية ((لأنّ ثمة علاقات طبيعية بين الفكر والبني اللسانية المعبرة عنه، وهناك نوع من التعادل بين الشكل والمضمون، كما أنّ هناك استعدادا طبيعيا يقوم في الشكل بالتعبير عن بعض فتات الفكر.)) (بييرجيو، ١٩٩٤: ٥٥).

فبناءً على هذا يصور شكلُ المنادي مواقف الشاعر الفكرية للصوفية تماشياً مع أسلوب النداء والمضمون الصوفي، متناسباً بين المعني واللغة.

٢-٣-٣- آلية التقديم والتأخير

الأسلوب الأدبي آليةٌ للإفصاح وتعبيرٌ عن فكرة التصوف بحيث لا يتجازف الشاعر بمضمونه وذلك باستخدام آلية التقديم والتأخير لكي لا يخرج على الأُسلوب الأدبي بما أنّ ((التقديم والتأخير في اللغة تعبيرٌ يؤدّي إلى سبب وغاية.)) (السامرائي، ٢٠١١، ج١: ١٣٦) إذ جعل الشاعر يرمي إلى التعاليم الصوفية انطلاقاً من آلية التقديم والتأخير لينال معني

الشوق والولع النفسي وذلك بالتعبير عن هذه الطريقة اللغوية ((على نية العناية والاهتمام.)) (الجرجاني، ١٩٨٤: ١٣٧) بالمقدَّم في الجملة التالية على الخبر جوازا وليس وجوبا قائلا:

عِبرةٌ فيض جفوني عبرةً بي أن تجريَ أسعي واشي

(النمري، ٢٠٠٣، ج١: ١٢٧)

إن كان المُقدَّمُ في الجملة يتأخّر فيما تصبح الجملة على نية الأصل فلا يمكن لابن الفارض أن يحشر في باطنه العِبرةَ (أي العجب) مضيفاً إلى سيلان الدموع التي دَمُعت في عينه وذلك بطريق أُسلوب تقديم الخبر على المبتداء.

على تقديم (العِبرة) على (فيض الجفون) يبني الشاعر الاهتمام والعناية كثرةً بالبكاء ليحصل من اهتمامه بالدموع، والعناية بالعجب بالبكاء انعكاسُ رقة نفسه وخلوصُ باطنه بخالص تقديره بما أنّ موقع الاهتمام في مطلع هذا الشاهد هو العجب بالبكاء الساري والدمع الفاضي لأنّ التقديمَ المُجازَ في الجملة وقع على هذين الأمرين.

يساير ابنُ الفارض طريقةَ التقديم التي تقصد العناية والاهتمام بحيث يختار الجواز في المُقدَّم وليس الوجوب لأنّ التعبير الأصلي في اللغة أمر طبيعي والعدول عن الأصل بالإفصاح هو تعبير يبحث عن غرض ما ((لأنّ التغييرات اللغوية تطرأ على طريقة الترتيب بحيث يقدّم عنصر أو يؤخر آخر.)) (سليمان، ٢٠١٤: ٢٠٣) لترمي إلى العناية والاهتمام بالمقدَّم وليس بالمؤخر.

ينصّ الشاعر في البيت التالي على طياته الصوفية بأسلوب التقديم معبّراً عنها:

جمع الهمومَ البعدُ عندي بعد أن كانت بقربي منهم أفذاذا

(النمري،٢٠٠٣، ١ : ١٩٢)

يترك بصمات الاهتمام والعناية بالمفعول المقدَّم جوازا ويغير ترتيب اللغة بحسب مرامه بحيث إنّ موطن الاهتمام والعناية يبني على هموم الشاعر بما أنّ مرارة الشجون والهموم أذاقته البؤس واجتمعت في باطنه.

على هذا التقرير بالعناية والاهتمام بالمقدَّم إنّ مدار الاهتمام قائمٌ على الهموم وليس

على البُعد. وبإمكان الشاعر أن يقدّم الفاعل في هذا الموقف على المفعول لكنّه مال إلى تقديم المفعول بالاهتمام به ليبين اجتماع الهموم متأثرا بالهموم نفساً وذلك تعبيراً عن اشتياقه لمجالسيه المتصوفين الذين سامرهم نيلاً بالتوجهات والمراتب الصوفية.

تغيير ترتيب الجملة في هذا الشاهد هو عبارةٌ عن إفصاح الشاعر تعبيراً عن المراتب الصوفية التي استقاها الشاعر من هذا الأسلوب وذلك للأحوال الظاهرية والباطنية وصولا إلى الاشتياق ونيلاً بالمحبوب الحقيقي أي الله.

٣-النتيجة

وصل البحث إلى النتائج التالية:

١- كانت معاني التصوف الإسلامي مرتبطة منسجمة باللغة بأساليبها انسجاما لغويا ودلاليا تُفسَّر على ضوء هذه الأساليب النحوية متأثرةً بالأساليب وذلك عندما يوظف إبن الفارض التقديم والتأخير والنداء وغيرها فكان يربط بين الأسلوب والمعني إرتباطا متسقاً فباتت معاني التصوف الإسلامي للشاعر متداخلة باللغة والأدب لا تتعارض أسلوبا ودلالةً، وإنّ لغة الشاعر لا تقتصر على المحسنات اللفظية.

٢- تُوجد علاقةٌ تعبيريةٌ بين الأسلوب والمعني إذ ربط الشاعر اللغة بالتصوف الإسلامي ويدلّ توظيفه الطرقَ اللغويةَ نظير الاستفهام، والتناوب، والنداء، والتقديم والتأخير على إمكانه القويم وذلك باتقانه الآليات اللغوية وسعته المتمكنة من التطلع إليها ثم التعبير بواسطتها حيث لا تقتصر لغته على المحسنات اللفظية.

٣- كان معجمُ مفرداته بأسلوب التناوب فيه شئ من المفردات القرآنية بما فيها مفردات متناظرة لكلمات القرآن كمفردة (خاطب) مثيلة لـ(إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) (الفرقان/٦٣) ومفردة (رح) مشتقةٌ من (الروح) فأسلوب التناوب لابن الفارض مأخوذ من النهج القرآني وذلك لتأسيس التصوف الإسلامي المتناسب بالثقافة الإسلامية لاغير.

٤- أمّا المنادي فهو يناظر الأسلوب القرآني من حيث إتيانه بالنهي المستمر (لا مع فعل المضارع) وذلك في شاهد (يا ساكن القلب لا تنظر إلى سكني) شبيهاً بآية (ينؤمَّ

لا تأخذ بلحيتي) (طه/٩٤) فكان أسلوب المنادي للشاعر في هذه الشواهد يشبه شيئًا من التقنية اللغوية القرآنية.

٥- تأسيساً على هذا يشبه أسلوبا التناوب والمنادي شيئًا من الآليات اللغوية القرآنية تأثيرا بالثقافة القرآنية لغة ومعني أمّا التقديم والتأخير والاستفهام فينتهجهما كثيرٌ من الشعراء تبعاً لقريحتهم اللغوية ومقاصدهم المعنوية.

٦- يمكن القول بأنّ ابن الفارض نظّر في التصوف الإسلامي وذلك عن طريق ثقافة القرآن اللغوية بشئ من الأساليب والمعاني نيلاً بالتصوف.

٧- كان ابن الفارض يميل إلى العاطفة وذلك باستخدامه أسلوب النداء والاستفهام فرغم أنّ التصوف الإسلامي نهج عقلي فلا يتعارض مع أسلوب الشاعر العاطفي لأنّه نابعٌ من رقة قلبه ونعومة شوقه حباً بالوصول إلى ذات المعبود والوجود باطناً ولا مشاهدةً بالبصر.

قائمة المصادر والمراجع

إن خير ما نبتدأ به القرآن الكريم

- الأسترآبادي، محمد بن الحسن الرضي، (٢٠١٣). شرح الرضي لكافية ابن الحاجب، تحقيق وتعليق يوسف حسن عمر، طهران، مؤسسة الصادق للطباعة والنشر.
- بن زكريا، أبو الحسين أحمد بن فارس، (١٩٧٩). مقاييس اللغة، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، بيروت، دار الفكر.
- بيير جيو، (١٩٩٤). الأسلوبية ترجمة منذر عياشي، دمشق، مركز الإنماء الحضاري، الطبعة الثانية.
- التفتازاني، أبو الوفا الغنيمي، (١٩٧٩). مدخل إلى التصوف الإسلامي، القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة.
- التفتازاني، سعد الدين، (٢٠١٢). شرح المختصر على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني، قم، منشورات إسماعيليان.
- الجرجاني، عبدالقاهر بن عبد الرحمن، (١٩٨٤). دلائل الإعجاز تعليق محمود محمد شاكر، القاهرة، مكتبة الخانجي.

- الراضي، إبراهيم صبر، (٢٠١٤). الأسلوبية والأسلوبية المقارنة، دمشق، دار الحصاد، الطبعة الأولى.
- ربابعة، موسى، (٢٠٠٣). الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، الكويت، دار الكندي، الطبعة الأولى.
- السامرائي، فاضل صالح، (٢٠١١). معاني النحو، بيروت، مؤسسة التاريخ العربي.
- سليمان، فتح الله أحمد، (٢٠٠٤). الأسلوبية، القاهرة، مكتبة الآداب.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك، (٢٠٠٠). الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناووط وتركي مصطفي، بيروت، درا إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى.
- ظهير، إحسان إلهي، (١٩٨٦). التصوف المنشأ والمصادر، لاهور، إدارة ترجمان السنة، الطبعة الأولى.
- عامر حسن، عرفة عبد المقصود، (لات). ظاهرة الاستبدال في نحو الجملة ونحو النص، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، دبي.
- عبد المطلب، محمد، (١٩٩٤). البلاغة والأسلوبية، القاهرة، دار نوبار للطباعة، الطبعة الأولى.
- الفاخوري، حنا، (١٩٨٦). الجامع في تاريخ الأدب العربي، بيروت، دار الجيل، الطبعة الأولى.
- الفراهيدي، الخليل بن أحمد، (٢٠٠٣). العين، تحقيق عبدالحميد هنداوي، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى.
- ماسينيون وعبدالرزاق مصطفي، (١٩٨٤). التصوف، ترجمة ابراهيم خورشيد والسائرين، بيروت، دار الكتب اللبناني، الطبعة الأولى.
- النمري، محمد عبدالكريم، (٢٠٠٣). شرح ديوان ابن الفارض، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى.
- الهاشمي، أحمد، (١٩٩٩). جواهر البلاغة، تحقيق يوسف الصميلي، بيروت، المكتبة العصرية.